الدرس الثاني: استغلال الوسط الريفي
(الطبوغرافيا و التقييم)

إن إستغلال أي وسط، فإنه يخضع بالضرورة إلى تخطيط أولي، و هذا الأخير يختلف بإختلاف طبيعة الموقع؛ أي طبوغرافية المنطقة. فمثلا ما بين عمران المدن الساحلية و الداخلية فإنه يوجد اختلاف كبير، حيث نرى أن مساحات المدن الداخلية أكثر اتساعا من المدن الساحلية، إذ نلاحظ أن المركز في هذه الأخيرة يقع على الساحل أي بمحاذاة الميناء.

– أصول المسح و التهيئة (الكنترة):

الكنترة و نظام التقييم يسمى كذلك بنظام التحديد.

روما ليست هي من اخترع هذا الصنف من المسح و التقييم المنظم (الأوائل كان الإغريق و الأتروسك)، و لكن هي من نظمته و منهجته. منذ مدة كان يعتقد بأن الكنترة كانت تمثل الشكل الأصلي للمنظر أو للمظهر الروماني، أما في الوقت الحالي فإن أولى عمليات الكنترة أرخت مع نهاية القرن 4 ق.م و بداية القرن 3 ق.م. و أصبحت مع نهاية هذا الأخير الطريقة المثلى لتقسيم و تنظيم الأراضي.

كان يعتقد منذ زمن بأن الكنترة (la centuriation) هي الشكل الحقيقي لكل مظهر روماني منظم، والذي يعود إلى فترة تأسيس روما و جميع مستعمراتها الأولى، الفكرة بدأ بها مهندسوا الزراعة (les agronomes) و مساحوا الأراضي (les arpenteurs) أنفسهم، بعد إعتقادهم بأن الكنترة ناتجة عن علم العرافين الأتروسك، و أنها الإطار الذي نظم فيه "روموولوس" (Romulus) الأراضي (Sortes) والمسمى بالهيريديا (Héredia)[1] خلال الفترات الأولى من تأسيس روما.

أصل المعلومة كان نص "لفارون" (Varron)، لخص و نشر فيما بعد من طرف "فرونتان" (Frontin) الذي قام بإثبات فكرة أصول الفن الزراعي.

ولقد تطورت في عهد "روموولوس" وحدتين من اليوجيرة (Jugera) كانتا تمثلان ميراثا (héritage) والذي يمثل بدوره وحدة الهيريديوم (herédium)، أين خصصها هذا الأخير لكل مواطن، تُنْقل أو تحول إلى ورثته ، وقد ارتفعت نسبتها بعد ذلك إلى مئة ميراث (cent héritages) أو بالأحرى مئة هيريديوم ، والتي أخذت هذه النسبة فيما بعد اسم الكنترة أو الكنتور (la centurie).

---

[1] - **الهيريديا (Héredia)**، هي وحدة تساوي 1/100 من الكنترة .

فالكنترة إذا عبارة عن مساحة مربعة، قدّر طول كل جهة من جهاتها بـ: 2400 قدم، وعندما نقوم بجمع أربع مساحات من الكنتور بشكل إثنان من كل جهة، تنتج لنا مساحة يطلق عليها اسم السالتوس (Le saltus) في التقسيم العام للأراضي.

(appelanur in agris divisis viritim publice saltus) Varron, RR.I.X.

طور فرونتان هذه الفكرة في نص حول أصل حدود الكنترة، و الذي صاغه من وجهة نظر أخرى في نص الحدود (De limitibus) المنشور من طرف دار النشر تولان Thulin.

يرجع الأصل الأول للحدود الذي رسمه و وصفه المهندس الزراعي "فارون" إلى النظام الأتروسكي، لأن الكهنة هم من قاموا بتقسيم الأراضي إلى قسمين، وسموا اليمنى على تلك الممتدة شمالا واليسرى على المتواجدة جنوبا (الإثنان يمتدان من الشرق نحو الغرب)، لأن الشمس و القمر يأخذان هذا المسار.

قسّم العرافون و الكهنة الأراضي أيضا بواسطة خط آخر يتجه من الشمال نحو الجنوب أطلق على الأمامي أو الشمالي اسم الأنتيكا (Antica)، و ما وجد من هنا سمي بـ: (Ultra)، أما الخلفي أو الجنوبي (Postica)، و ما وجد من هنا سمي بـ: (Citra).

وظهر من خلال هذه القاعدة أن القدامى اعتمدوا على هذا المنهج في قياس و تقسيم الأراضي، ففي البداية قاموا بوضع خطين محدودين، الأول من الشرق نحو الغرب و المسمى بالدوكيمانوس، و الآخر من الشمال نحو الجنوب و المسمى بالكاردو، و في هذه الحالة خط الديكيمانوس يقسم الأرض إلى قسمين : يمنى و يسرى، و نفس الشيء بالنسبة للكاردو و لكن من الجهة الأخرى.

و السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا نطلق عبارة الديكيمانوس (Décumanus) مع البدء بالعدد عشرة بدل الإثنين، بينما كل أرض في نطاق التقسيم تتفرع إلى قسمين؟ كما أنه فيما مضى استعمل القدامى عبارة الديوبنديوم (Duopondium) [et duoviginti] ، في حين أن اليوم تستعمل الديبندوم (Dipondium) [et viginti]، وكذلك بالنسبة لعبارة الديوديكيمانوس التي أصبحت ديكيمانوس (Décimanus).

سمّي الكاردو (le kardo) بهذا الاسم، لأنه اعتمد في خطه على محور السماء (في اعتقادهم أن السماء تدور في الدائرة الشمالية)، بعدها ألغى الكثير من هذه الأخيرة، واتبعوا طرقًا أخرى؛ فوضع البعض خط الدوكيمانوس تبعا لشساعة المحيط أو الرقعة الجغرافية، أين يكون من الجهة الأكثر اتساعا.

في حين لم ينظر البعض الآخر للشرق أو شروق الشمس، و لكن وجهوه بطريقة يقابل فيها الشمال مباشرة، و هو ما تم فعلا في الأرض المعروفة بـ: Ager Campanus الواقعة في محيط منطقة "كابو" (Capoue) شمال إيطاليا ، أين خط الكاردو موجه ناحية شروق الشمس و خط الدوكيمانوس نحو الشمال.

من خلال هذان الإثنان (الكاردو و الدوكيمانوس)، تمت تسمية جميع أجزاء المحيط.[2] (أنظر المخطط)

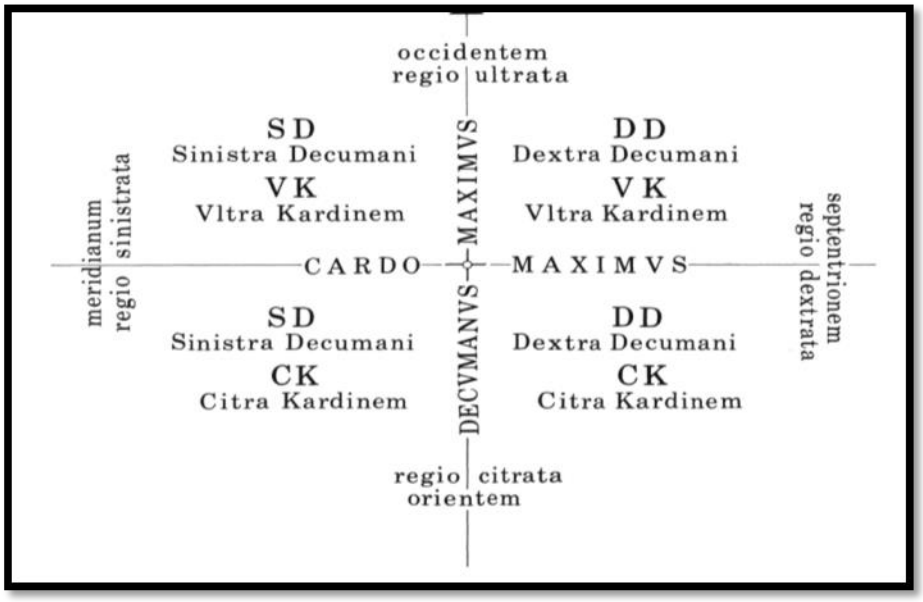

تعيين الإتجاهات و الأرباع من طرف مستعمل القروما *(Agrimensor)*

عن ADAM J.P., La construction Romaine, p. 12

<u>التخطيط الأولي و عملية تقسيم المساحات:</u>

يعتمد بالدرجة الآولى على أربع محاور كبرى وهي:

- التدشين (Inauguratio)
- التحديد (Limitatio)
- التوجيه (Orientatio)
- الإهداء (Consecratio)

<u>مجالات استعمال مصطلح الكنترة:</u>

في المفهوم العام عند الرومان لها معاني عديدة و لا تمثل العدد 100.

نجدها تمثل أكبر عدد و لها قيمة كبيرة نحصرها بين 60 و 80 أو أكثر ، و الشيء الذي يعلل ذلك هي التعريفات العديدة .

أول استعمال لكلمة كنتوري centerie نجده في ثلاث مجالات:

[2] - **CHOUQUER (G.) et FAVORY (F.),** l'Arpentage Romain, p.p.164-165.

1- **الجانب العسكري:**

Centurie تمثل مجموعة من الجنود يتراوح عددهم بين 60و 80 جنديا ، و الذي يحكمها يلقب بـ: centurion، و يمكن التعرف عليه بواسطة عصا القيادة، و هذه الفرقة لديها ثلاث تنظيمات.

Centurie (60-80 جنديا) ×2

Manipule (120) × 3

Cohortes (360) × 10

Légion (3600). (60 centurie)

2- **الجانب المدني:**

نجد كلمة cantarie في تمثيل مجالس الشعب، مجموع الناخبين الذين يمثلون طبقة الفرسان عددهم 18 centerie .

بعدها تليها الطبقة العامة يمثلها 170 centerie ، إذ أن هذه الأخيرة تنقسم إلى 5 مجموعات وفق الثروات الخاصة.

المجموعة الأولى مكونة من 80 centerie

المجموعة الثانية مكونة من 20 centerie

المجموعة الثالثة مكونة من 20 centerie

المجموعة الرابعة مكونة من 20 centerie

المجموعة الخامسة مكونة من 30 centerie

3- **الجانب الاقتصادي (الأراضي):**

استخدمت هذه الكلمة من طرف أشخاص يعرفون باسم les arpenteurs ، و هم الناس الذين يستعملون القياسات. و كانت لهم مهام قياس الأراضي و القطاعات و يعرفون أيضا باسم Gromatici نسبة إلى أداة القياس la groma .

خلال حكم الإمبراطور Vespasien تم تقسيم مجموعة من القطاعات ، إذ أن كل القطع كانت تمثل 3/1 centerie

الأجهزة الطبوغرافية المستعملة في عملية الكنترة:

1- أداة القروما (*La Groma*): (تعريفها)

هي عبارة عن جهاز يقوم بعملية المسح من أجل تقسيم مختلف المساحات لغرض إستغلالها سواء في المجال العمراني أو مختلف النشاطات الفلاحية (بهدف توزيع الأراضي الفلاحية و منه رفع الضرائب)، أما الأشخاص الذين يشرفون على العمل به يطلق عليهم إسم " *Agrimensor* " نسبة إلى تسمية الأداة.

الأداة تأخذ شكل عصا عمودية تحمل في نهايتها العلوية شكل صليب بأربع فروع متعامدة وبأبعاد متساوية مرتكزة على دبوس يسمح بالدوران في جميع الجهات. نهاية الفروع الأربع مدعمة بمسابير (fils à plomb) [3] العصا الرئيسية تقف على مثبت أو ثلاثي القوائم بغرض تركها واقفة من دون مسكها بشكل دائم. ومن أجل ضبط الجهاز للعمل يجب أن يكون المسبار الخامس المتواجد أسفل الدبوس الذي يلعب دور المحورعموديا و منتصبا وسط محور التقاطع المهيأ على العلم القروماتيكي (Borne Gromatique)

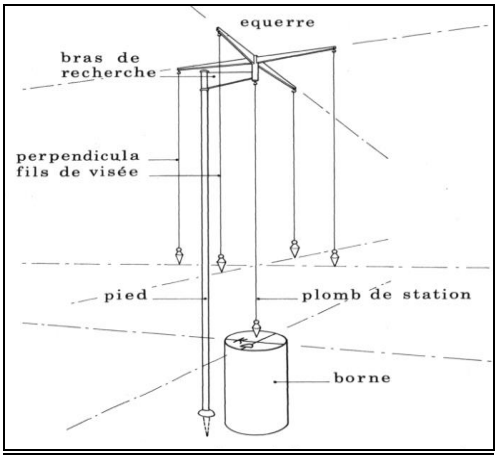

إعادة تصور أداة القروما

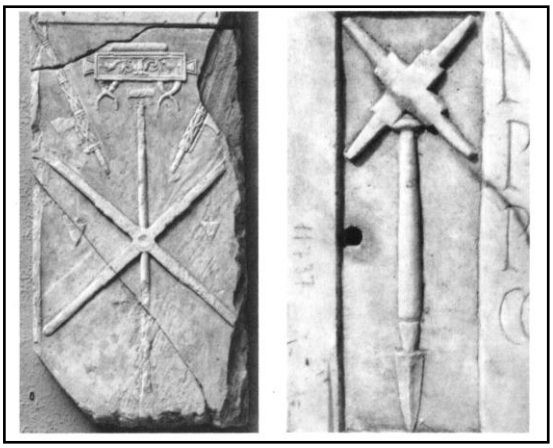

أداتي القروما وجدا في شاهدي قبر

(ADAM J.P., La construction Romaine, p. 11**)**

[3] - **ADAM (J.P.),** La construction Romaine, p.11.

شكل يبين كيفية العمل بأداة القروما

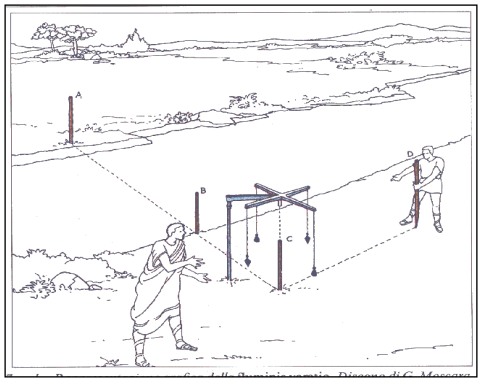

كيفية العمل بالقروما

2-أداة الكوروبات (*Le Chorobate*):

هي أداة مكملة "للقروما" الهدف منها هو الفحص و التحقق من المستويات الخاصة بمختلف عمليات التهيئة في الفترة القديمة. تم التعرف على الأداة من خلال وصف فيتروفيوس لها. مبنية من الخشب، و بالتالي من الصعب العثور عليها أو بالأحرى من المستحيل. فوصف فيتروفيوس الدقيق سهل للباحثين إعادة تصوره، و هو ما نلاحظه في الشكل المبين في الأسفل. تأخذ شكل ركيزة طويلة برجلين قائمين، تحتوي في سطحها على قناة أفقية تمكن من وضع رؤية عمودية من خلال الطاولة . من الجهتين الأمامية و الخلفية يوجد مسبار مثل ذلك الموجود في أداة القروما، الهدف منه الحفاظ على توازن الأداة في حالة الميلان . القناة هي الأخرى تساعد على ذلك، حيث نقوم بوضع الماء للإعتماد عليه في حال هبوب الرياح التي تقوم بتحريك الرصاص الموجود أسفل الخيط.

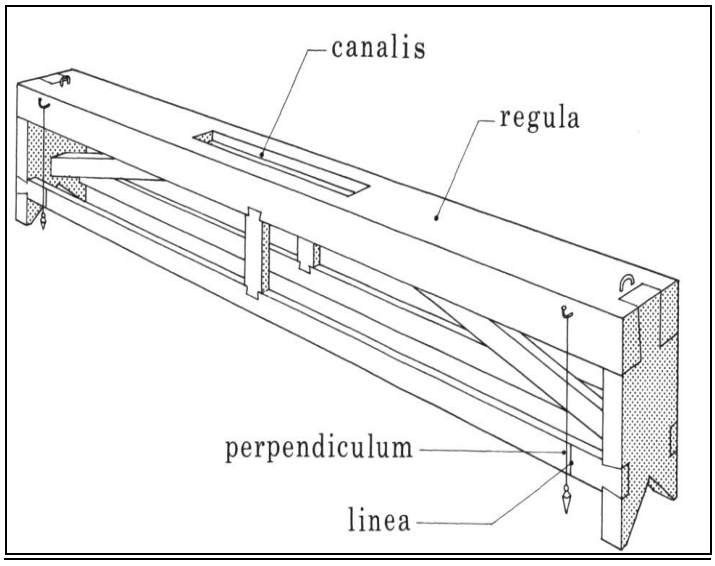

إعادة تصور لجهاز الكوروبات حسب فيتروفيوس (Vitruve VIII-5)

عن ADAM J.P., La construction Romaine, p. 18

الكنترة و التقييم في بلاد المغرب القديم:

إن ضخامة العمل و دقته (الكنترة) و آثاره على البيئة الإقتصادية و الإجتماعية القائمة على الزراعة في بلاد المغرب، أدى ببعض المؤرخين إلى وصف هذه العملية بالفريدة من نوعها في التاريخ، نهض بها شعب بفرض قواعد علمية و نظما محكمة على الطبيعة فاستغل الأرض بطريقة عقلانية لم يسبق لها مثيل.[4]

فالمسح والتنظيم الكنتوري إذن إجراء إداري أملته المصلحة الإقتصادية والسياسية للإمبراطورية في أول الأمر، ثم اتسع مفهومه بعد ديوكليتيانوس فأصبح لا يعني إحصاء الأرض و السكان فحسب، و لكن جميع ما يقدر بثمن؛ أرضا و ماشية و بشرا و مزروعات و حرفا و وظائف، كل ذلك من أجل فرض الرسوم الجبائية الملائمة عليها.[5]

إلا أن تاريخ البدء في هذه العملية ببلاد المغرب يفتقر إلى التحديد الدقيق، ومن ثم ظل أمرها عرضة لإفتراضات متناقضة أحيانا بين المؤرخين، و على سبيل الترجيح فإن الرومان قد شرعوا في هذه العملية التقنية بشمال إفريقيا منذ القرن الثاني قبل ميلاد المسيح، وربما كانت حملة كايوس غراكوس الإستيطانية في تراب قرطاجة عام 122 ق.م. بداية لتطبيق هذه التقنية في بلاد المغرب. ذلك أنه لم يكن مأتيا للنائب الشعبي المتحمس للإستيطان القيام بتوزيع الأراضي على 6000 من المعمرين دون أن يستخدم قواعد علمية وقانونية كانت معروفة في إيطاليا من قبل ، وهي قواعد الكنترة، ومن ثم يمكن الوثوق في هذا الترجيح لوجهاته، ولو بصفة مؤقتة في انتظار ما سيكشف من حقائق تاريخية حول هذا الموضوع.[6]

وقد قام علماء الآثار في شمال إفريقيا بتحديد ثلاث مناطق خضعت لنظام التحديد، الأول في الجنوب الشرقي لتونس و الثاني في شمال شط الجريد والثالث غرب تونس، هذا الأخير تم في سنتي 29–30 م من طرف البروقنصل "كايوس فيبيوس مارسوس (C. Vibius Marsus) ؛ وقد تم التعرف على تأريخ هذا العمل بفضل عدد من العلامات. كما أن الصور الجوية أظهرت هي الأخرى امتداد هذه التقسيمات الذي يغطي مساحة 29600 كلم² ،[7] أما في الجزائر فنلاحظ أن هذا النظام ومن خلال ما توصلت إليه الأبحاث شمل عددا من مناطق الشرق الجزائري منها "تاجنانت" (Saint Donat)[8] وبني قاشة

---

[4] – **شنيتي (م.ب.)**، نوميديا و روما الإمبراطورية.ص.68.

[5] – **نفسه**، ص.84.

[6] – **نفسه**، ص.76.

[7] - **LE BOHEC (Y.),** Histoire de l'Afrique Romaine, 146 av.- 439 ap., p.140.

[8] - **SOYER (J.),** Les cadastres anciens de la région de saint Donat (Algérie), Ant.Afr. 1973,p.p.275-296.

و تيبرقانت وأحمد راشدي (Richelieu) وبلاد يوسف ومنطقة روفش (ابن زياد) و الهرية و عين ملوك وواد العثمانية وعين اعبيد وعين مليلة ومناطق ورقة عين فكرون (جنوب الخروب) و مناطق ورقة جميلة و منطقة سطيف و العلمة (Saint- Arnaud) وجبل ساطور ومناطق ورقة مزلوق و ورقة بئر العرش (Navarin) و منطقة راس الواد (Toqueville) و مناطق ورقة عين آزال (Ampère) و ورقة عين ياقوت وورقة عين كرشة وورقة سوق اولاد نعجة و ورقة بوطالب وورقة رأس العيون ومنطقة مروانة (Corneille) ومناطق ورقة المعذر و منطقة بولهيلات (Lutaud) ومناطق ورقة غارة الطرف ومنطقة نقاوس ومناطق ورقة باتنة و منطقة تازولت (Lambèse) ومناطق ورقة توفانة وورقة خنشلة وورقة بريكة وورقة عين توتة (Mac-Mahon) وورقة جبل المندرة وورقة العقلة الميتة وورقة خنقة سيدي ناجي.[9]

أما في منطقة قالمة فقد سجلنا مخلفات مادية لهذا النوع من العمل و المتمثلة في علم قروماتيكي (borne gromatique) في الموقع المسمى ببئر عيسى في الجهة الشرقية لقالمة، وقد دعمنا هذا الإكتشاف بمخلفات هذا التنظيم من خلال بعض الصور الجوية القديمة.

- التاريخ الروماني و انطوائه تحت اشكالية الفلاحة و الإستعمار

1-1- مسألة الفلاحة و احتلالها لمكانة رئيسية في التاريخ الروماني من خلال مركباته:

أ- الإقتصادية: العمل أو تطبيق النشاط الفلاحي كان مدعم على حساب النشاط الرعوي الذي كان يقام في مساحات واسعة من الأراضي العمومية Ager pvblicvs ، التي كانت غير ملائمة للنشاط الفلاحي.

ب-الإجتماعية: مفهوم المواطنة لا يمكن تصوره من دون امتلاك الأراضي، فالرومان في حقيقة الأمر كانت لهم صورة شعب فلاحي و محارب في نفس الوقت.

ت- العسكرية: مكافأة العسكريين و قدماء الجيش بقطع أرضية.

ث-السياسية: مشكل الإحتكار و إعادة شراء الأراضي العمومية من طرف الطبقات الراقية على حساب طبقة صغار الفلاحين أدى إلى إلحاق الضرر بهم.

[9] - **Ibid,** p.p.107-180.

1-2- دافع الإستعمار هي ظاهرة رئيسية في الحياة السياسية الرومانية:

منذ القرن 1 ق.م أصبح سكان المستعمرات عسكريين بالدرجة الأولى يحكمهم قائد، أين تمكنت هذه السياسة من جلب الكثير من الناس ، هذا لأن إخلاصهم يمكنهم من اكتساب الأراضي عند نهاية خدمتهم العسكرية.

الكنترة مرتبطة بصفة عامة بالإستقطاع الإستعماري (déduction coloniale)، معنى ذلك أن كل مساحة معينة من الأرض التابعة إلى المستعمرات الخاضعة تحت السيطرة الرومانية، تتسيب أو تتملص منها هذه الأخيرة من أجل توزيعها على المستعمرين و قدماء الجيش الذين كانوا تابعين الفيالق. ومن هنا يمكن القول:

أ- أنه لا يمكن البحث على علاقة تلقائية بين اتجاه المساحة الريفية و التشابك العمراني .

ب- في التاريخ الفلاحي لروما، يمكن إيجاد الكثير من حالات توزيع الأراضي من دون تأسيس مستعمرة (معنى ذلك أن تقسيم الأراضي لا يقتصر على المدينة فقط).

II- روما تعتمد في هيمنتها على العلوم التقنية المعقدة (المسح l'arpentage)

دراسة مسحية للكنترة l'arpentage d'une centuriation

تشكيل و قياس الكنترة (فيما يخص وحدات القياس ارجع إلى جدول الدرس السابق)

الكنترة هي عبارة عن شبكة متعامدة جد صلبة، تكونت بفضل عدة محاور: شمالية جنوبية و تسمى بـ (Kardines

و شرقية غربية و تسمى بـ (Décumaii)، و هذه الأخيرة تقسم المحيط إلى قطع أو مساحات يطلق عليها الكنتوري (centurie)، و هي على العموم ذات أشكال مربعة أو رباعية.

وحدة الكنترة تعتبر الوحدة الرئيسية في عملية كنترة الأرض (فبدون وحدة الكنترة لا توجد عملية التقسيم) (Sans centurie , pas de centuriation).

في هذا الإطار قام ماسحوا الأراضي les Arpenteurs بتسجيل الأراضي و مساحتها و ملاكها.

و كان مقاس أو مساحة الكنتوري les centuries في بداية الأمر مختلفة بين 10 و 25 آكتوس Actus .

في اليوم الحالي من خلال النصوص و الدراسات المورفولوجية، تم التعرف على عدد كبير من المقاييس المستعملة في عملية الكنترة (درس الحصة السابقة)، و ما سمح بوضعها، كان على مضاعفات وحدة الآكتوس الطولي Actus linéaire المقدر بـ 120 قدم .

(1Actus « la mesure antique de base » =120 pieds = environ 35,5 mètres)

الكنترة هي وحدة ذات 20x 20 آكتوس Actus من كل جانب، و تساوي ما بين 704 و 710 متر، وهذا على حساب طول القدم. حيث أصبحت منذ القرن 2 ق.م، الوحدة الأكثر تعاملا، إذ تعطينا حوالي

50 هكتار، و هي قديما كانت 100 مرة من وحدة الهيريديوم Heridium (أصغر جزء متحول)، و نظريا 100 قطعة أرضية من الكنترة يتم توزيعها على 100 شخص، و لكن في الواقع و تطبيقيا و تماشيا مع القواعد التحتية و الفترات، يمكن لمعمر واحد أن يأخذ عدد من القطع.

إجـراءات المسـحـــ procédures d'arpentage

- الزيارة الأولى للموقع من أجل اختيار المساحات المراد استغلالها
- التعريف بالموقع المراد توزيعه
- وضع سلسلة من النقاط معرفة بواسطة علامات (Bornes)
- اختيار الموقع أين نضع جهاز la groma بالنسبة للرؤية الأولى.
- يقوم الماسح l'arpenteur برسم المحور الأول وهو Décumanus Maximus. بالنظر من الشرق أو الغرب، و الذي سوف يطبق على أرض الواقع بعد ذلك .
- من النقطة الأولية يتم شق خط شمال جنوب Kardo Maximus نظريا ، ثم يطبق بدوره على أرض الواقع
- انطلاقا من هاذين المحورين الرئيسيين، يتم خط محاور موازية لأحدهما و عمودية بالنسبة للثاني، و من خلال هذه الحدود نتج ما يعرف بالكنترة Centurie.
- التطبيق المادي للكنترة من طرف الرومان = موضوع علم الآثار الفلاحي
- حفظ معطيات المسح.

كل هذا يتماشى مع فترات مختلفة، حيث يوجد أوقات يتباعد فيها الخضوع السياسي الاستعماري مع تخصيص حصص المستعمرين.

انجاز العلامات الخاصة بالمسح، و تحقيق شبكة في إطار الحياة الفلاحية، و في هذه الحالة فإن البقايا أو المخلفات الأثرية تعرض أو تقترح تأريخا مع الأخذ بعين الإعتبار تاريخ الخضوع السياسي، و عملية المسح هي في حقيقة الأمر تؤرخ بكل بساطة بواسطة التهيئة الفلاحية.